الفصحى ... أمانة فى عنق هذه الأمة

للأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس

تتخذ لغات الأمم معياراً لتقدمها ونباهة ذكرها وعلو قدرها ... إذا كانت حية ناشية منتشرة ، أو لضعفها ، وخمولها، وهونها ... إذا كانت هزيلة ، متخاذلة منكمشة . لذلك حرصت الأمم على أن تولى لغاتها كبير عنايتها ، وأن تبذل فى سبيل نشرها وتزكيتها ، وإحياء ما اندثر منها ، والمحافظة على قواعدها طاقات كبيرة ، من المال والجهد ، والرعاية .

يقدرون النبوغ في العلوم والفنون ، ويحتفون بالعبقرية فى الفكر والاختراع ويحيون نباهة الذكر ، وبروز الشخصية ، لأن من لوازم ذلك كله أن تجد لغتهم منفذا من أقطار الأرض ، وأن تفرض نفسها، وتتبوأ مقعد الإعزاز والإكبار . ثم هم يغارون علي لغاتهم من أن يطغى عليها الدخيل ، أو تجد المسميات الأجنبية، والألفاظ المستوردة سبيلا إلى ألسنتهم ، يستغنون بها عن لغتهم ، ويرضون بها بديلا عن مصطلحاتهم ... دعك ممن يتعالم ، ويتحاذق بتطعيم كلامه بألفاظ يستوردها ، وعبارات يجترها كما هو المشهود من بعض مثقفينا اليوم ، فهذا عندهم لا وزن له ، إن وجد ، وما هو بموجود .

ثم هم يغارون على لغاتهم من الغبل فى الألسنة واللوثة فى النطق ، والركاكة في التعبير فيقيمون للنقد وزناً يحارب اللحن ، ويسلق من يحاول أن يقتعد غير وكره أو يدرج إلى غير عشه .

فهم ينمون لغتهم بالتهذيب ، والاشتقاق ، والاصطلاح .. ويستعملون مواهبهم وأفكارهم وجهودهم ... فى توسيع دائرتها ، وضمان انتشارها .. ويقوّمون بالنقد ما اعوّج من مسالكها

(*) ألقي هذا البحث فى الجلسة السادسة للمؤتمر المنعقدة يوم السبت غرة شعبان سنة ١٤١١ هـ الموافق ١٦ فبراير (شباط) سنة ١٩٩١ م

أو انآد من قناتها .. وكلهم لذلك ، وبما أوتوا من ثقافة وفهم للحياة ، وإدراك لقيمة اللغة ... كلهم حراس على لغتهم وأمناء عليها ، ورقباء .

ولم يكن العرب الأقدمون بأقل شأنا من هؤلاء ولا أولئك ، إذا لم يكونوا المثل الأعلى والقدوة المثلى ، فى الحفاظ علي لغتهم ، والغيرة عليها ، والحفاوة بها – فما كان البيان فى أمة غير العرب مطلبا يراد لذاته ، ومبتغى يعمد إليه وغاية لا وسيلة ... وما كانت الفصحى فى غضارة مجدها ، ونضارة فودها ، وعلوكعبها لتبلغ ما بلغت ، لولا مقاويل هرت الأشداق ، يتبارون من رحابها في شتى المسالك ، ويتنافسون من أسرارها في مختلف الفجاج ... يقفون للخطابة فينثال البيان طوع ألسنتهم ، وتتزاحم لهم الألفاظ فى أسماطها ، ويتأتى لهم القول فى أصالته ، وسلاسته ، وجزالته ، وسموه ... ويقرضون الشعر ، فيؤاتيهم إلهاما ، وينقاد لهم طبيعة ، ويفيض تأثرا تحوطه السليقة ، وتبعثه الملكة ، وتستجلبه دنياهم ضاحكة أو باكية ، واصفة أو حاكية تتنفس عنه موهبة ، لم تعان درسا ولم تتكلف صنعة ولم ترجع إلى قواعد .

يضاحكون النور أو يغازلون الرياح ، أو يشكون الوجد ، أو يفاخرون أو ينافرون فيجدون ملكة سخية ، وألفاظا طرية ، وبيانا ثرا ... وتلقى أحدهم اللقاء العابر ، فتستجلى أمره ، وتطلب خبره .. فيبثك مالديه ، غير متكلف ولا متعمل ، فى أسلوب بياني ، حلو الديباجة ، منتقى الألفاظ ، سليم الأداء ، واضح النبرات .

قوم أعطوا لغتهم صفاء قرائحهم ، ونقاء مواهبهم ، وشفافية أذهانهم ، ولماحية خواطرهم فأعطتهم من جمالها ، وكمالها ، وحلاوتها ، وطلاوتها ، وسحرها، وسرها وفيضها الزاخر ، ومدها الأتى ... ما يعجز عن بسطه اليراع ، ويلتاث دون وصفه التعبير .

فكانت الفصحى فى أخريات عصر الجاهلية ، وبين يدى الإسلام ... قمة فى البيان تتقاصر دونها القمم ، ونهاية

لا تطاولها لنة ، بالغة ما بلغت ، من النضج ، ورحابة المنطلق ، وغناء المد ولم تكن معجزة القرآن لتأتى إلى العرب فى صميم علمهم ، وسواء فنهم ، وهم البلغاء المقاويل والفصحاء ذلق الألسن ، ملوك القول .

لولا أن المعجزة تأتى إلى الأمم بما تحذقه وتخرج إليهم بنوع ما هم مبرزون فيه ... فمعجزة موسى كانت من نوع ما قوم موسى واقعون فيه ... وكانوا سحرة مهرة فجاءتهم المعجزة فى العصا ، تكون حية تسعى ، ويضرب بها الحجر فينبع ماء ويضرب بها البحر فينفلق ، وفى اليد تخرج من جيب موسى فإذا هى بيضاء للناظرين ... ومعجزة عيسى إبراء الأكمة والأبرص ، وإحياء الموتى ... فى قوم حذقوا الطب ، ومهروا فيه .

ولكن لم يبلغ سحر أولئك ، ولا طب هؤلاء ، مثلما جاءت به المعجزات .

وجاءت معجزة محمد إلى قومه ، وللفصاحة بينهم شأن ، وللبلاغة عندهم مكان ، لا يطاولهم في ذلك مطاول ولا يطمع فى مكانتهم طامع ، ولا يدور بخلدهم أن يؤتوا من جانب الفصاحة ، ولا أن يغلبوا فى ميدان القول فتركهم القرآن حيارى مبهوتين ، وأصيبت ألسنتهم بالخبل ، وأشداقهم بالشلل ... وتحداهم فأصيبوا باللكن ... وناداهم للمحاكاة فيئسوا وانقطعوا ... (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

فهذب القرآن من حواشى اللغة ، وشذب من متوقحها ، وصفاها ونقاها ووهبها مادة خصبة ، ومكانة رحبة ، ومنحها الديمومة والخلود ... فالعربية فى متنها وقواعدها ومصطلحاتها . مدينة للقرآن ، كما هى مدينة له فى بسوقها ، وسموقها ، وانتشارها واتساع دائرتها ، ومعانيها ومبانيها .

ذلك أن هذه اللغة قد بلغت قبيل الإسلام ، ثم في عصور الإسلام الزاهرة، غاية مجدها وعنفوان شبابها ... وما كانت لتبلغ ما بلغت ، لولا غيرة حفاظها

ويقظة أمنائها ، وإخلاص ذويها ... سواء كان ذلك لذات هذه اللغة أو من أجل أنها لغة القرآن ، أو لكليهما معاً .

وماكان تفاخر العرب في جاهليتها، بسلامة ألسنتها من اللحن وسلائقها من التحريف فإن العرب في جاهليتهم لا يلحنون ، بل يصدرون في نطقهم عن السليقة ويعتمدون على الطبع ... وإنما يتفاخرون في سمو المنطق ، وجزالة اللفظ، وقوة العارضة ، وسلامة الذوق .

وننكر إن شئنا على الناس قولهم

ولا ينكرون القول حين نقول

وما كل قبائل العرب في درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة ، بل هم على مراتب ، ولكن ذلك لا يعنى غمز اللغة ، أو وجود اللحن فيها . وكان الأعراب المتوقحون أفصح من الحضر . لذا كان النبلاء من قريش وغيرهم يبعثون بأبنائهم إلى البادية ، لينشأوا بها ويزدادوا فصاحة وخشونة .

ولما جاء الإسلام بدأت بوادر اللحن تظهر بين المسلمين ، ويظهر أن سبب ذلك دخول عناصر فى الإسلام ، ليست من العرب ... ولكن حراس اللغة ، كانوا نهؤلاء بالمرصاد وعلى رأسهم منقذ البشرية نبينا محمد ﷺ ... لحن رجل بحضرته فقال : «أرشدوا أخاكم فقد ضل» ... ويروى عنه أنه قال : «رحم الله امرأ أصلح من لسانه» .

وقد درج خلفاؤه من بعده على هذا السنن ... كتب أبو موسى الأشعرى كتابا إلى عمر فلحن كاتبه ، فرد عليه عمر قائلا : قَنِّعْ كاتبك سوطاً .

وكان انتشار المسلمين في الأقطار ، ووفود الأعاجم إلى قاعدة الدولة الإسلامية وامتزاج العرب بغيرهم من الأعاجم سببا فى فساد السلائق ، وانحراف الألسنة ، فما جاء الجيل التالى فى الإسلام حتى تفشت هذه الظاهرة بين عرب الحاضرة ، وأخذوا أبناءهم بتقويم الألسنة ، وتهذيب النطق ، حتى أن ابن عمر يضرب بنيه على اللحن تقويما لهم .

واحتضن هذه الأمانة بعد عصر الخلفاء ، الدولة العربية الأصيلة ، دولة

بنى أمية فكان خلفاؤها الغُيرُ ، ورجالها العرب الخلص ينافحون عن الفصحى ، ويذبون عن حماها ويحتقرون من يتهاون بها ... استأذن رجل من أهل الشام على عبد الملك بن مروان وعنده قوم يلعبون الشطرنج ، فقال : ياغلام غطها . فلما دخل الرجل تكلم فلحن فقال عبد الملك : ياغلام اكشف عنها الغطاء ، فليس للاحن حرمة ، ولما لحن محمد بن سعد بن أبى وقاص قال : (حَس) إنى لأجد حرارتها فى حلقى .

ويعتبر اللحن لديهم مغمزا فى كفاءة الخليفة ، فيقال : حسبك بفلان الخليفة لولا أنه لَحّان ... كان الوليد بن عبد الملك لَحّاناً على عدله ونباهة ذكره ، يقول أبوه : أضرَّ بالوليد حبًّا له ، فلم نوجهه إلى البادية ، ليقوم لسانه ... حتى قيل له يوما وهو خليفة : إن العرب لا تحب أن يتولى عليها إلا من يقول كلامها . فعندها جمع أهل النحو ، ودخل بيتا ليتعلم فيه ، وحبس نفسه فيه شهرا مكبا على علم النحو ولكنه خرج مثلما دخل !

خطب الناس يوماً فقرأ فى خطبته: ياليتُها كانت القاضية ، بضم التاء من ليت ، فقال عمر بن عبد العزيز وكان فى الحاضرين : عليك وأراحنا الله منك .

وعدوا رجالا فى ذلك العهد ، لم تحفظ عليهم لحنة واحدة ، من شدة كلفهم باللغة وعنايتهم بها ، منهم : عبد الملك بن مروان ، والشعبى ، والحسن البصرى ، وأيوب بن القِرِّيَّة .

ومازالت الدولة الأموية محافظة على أمانتها ، مكافحة لكل ما من شأنه ثلب الفصحى ، وغمزها ، رغم الدواعى والدوافع .

وما إن آل أمر الخلافة إلى بنى العباس ، وكان للأعاجم يد فى تصريف أمور الدولة ... وطغت التيارات التى حلت عرى العصبية العربية ... حتى داخل الألسنة ما داخلها من الدخيل وما لاثها من العجمة ، فى ضعف من المقاومة، وقوة من المد الأعجمى ... عند ذلك اكتفى الغُيُر من علماء هذه الأمة الأفذاذ ، بوضع التآليف وتقعيد القواعد ، والرحلات إلى البوادى .

وقامت مدارس لكل منها مريدون ، وأتباع ، فألفوا أول ماألفوا – فيما تلحن فيه العامة ، لأن اللحن آنذاك كان مقتصرا على لحن العامة ، مثل كتاب أبى عبيدة وأبى حنيفة الدينورى ، وأبى عثمان المازنى ، وأبى حاتم السجستانى ، والمفضل بن سلمة والفراء ... وغيرهم ... من علماء القرن الثالث فما قبل .

أما بعد ذلك فقد وقع الخاصة فى اللحن ، وسرت إلى العلماء عدوى هذا الداء رغم ما يقابلون به من نقد لاذع ، وغمز منكى مما حدا ببعض أعلام ذلك العهد : أن يؤلفوا كتبا فيما تلحن فيه الخاصة ، مثل كتاب : لحن الخاصة لأبى هلال العسكرى ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى وغيرهما .

ولم تزل العجمة بعدئذ تطغى ، واللحن يتفشى ، تبعا لانحدار دولة الإسلام والعرب حتى انقرضت الملكة العربية أو كادت ، وأصبحت الفصاحة تؤخذ بالدرس والملكة تتربى بالمعاناة والحفظ والإدمان ... وهجرت جوانب من الفصحى لاينطق بها لسان ولا يخطها يراع ، مقبورة فى بطون الأسفار ، وتضاعيف المعاجم ... وأصبح المنافحون عن حمى الفصحى يضربون فى حديد بارد ، وبسهم صارد ... حتى جاء ما يسمى بعصر النهضة ، وأول نواتها كان فى مصر والشام ، برز منها رجال هم ما هم فى علوم اللغة وآدابها ، وفى الجهاد والنضال فى سبيل الأمة العربية ، والإسلامية ... نذكر من بينهم اليازجيين، وعبد الله فكرى ، وعبد الله نديم ، ونجيب الحداد ، وعائشة التيمورية ، والبارودى ، وحسين الجسر ، وأحمد فارس الشدياق، وأحمد السباعى ، وحسن العطار ، والمرصفى ، ورفاعة الطهطاوى ، وآل البستانى ، وجمال الدين الأفغانى .. وعبد الرحمن الكواكبى ، ومحمد عبده ، وأخيرا جرجى زيدان ، وحافظ إبراهيم ، والرافعى .

كل أولئك وغيرهم من الأعلام هم قادة النهضة ، وأقطاب الفكر ، ورواد الأمة كانوا ورثة ذلك التراث المجيد ، ونعم الوارثون ، وكانوا دعامة لنهضة

عربية ، لو قدر لها أن تحتفظ بحرارتها وحماستها ، ونهجها السليم ... ولو قدر للخلف أن يتقفى آثار السلف وأن يكون لذلك التراث وراث ، ولا ننسى ما للجامعة الأزهرية من فضل على الشريعة واللغة لا ينسى .

ولكن سرعان ما سرى الوهن فى جسم تلك الانتفاضة ، واعتور الفصحى وعلوم الشريعة ما اعتورها من عوامل هدم ، جد بها الزمن ، وابتليت بها الأمة إلى يومنا هذا ... ولعل شاعر النيل حافظ إبراهيم أدرك بوادرها ، وقد كان عهده سليما ، وحالة الفصحى لا تزال بخير يقول على لسان اللغة العربية ، من قصيدة طويلة :

أرى كل يوم فى الجرائد مزلقا
من القبر يدنينى بغير أناة
سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما
يعز عليها أن تلين قناتى

إلى أن قال عن رجال الغرب :

أتوا قومهم بالمعجزات تفنناً
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ونستطيع أن نقول إنه بعد صدر هذه النهضة ، قامت فى البلدان العربية مدارس أدبية ، كل منها له صحافة وأتباع ، ورواد .. وتشقق الفكر العربى تبعا لاتجاهات جديدة وتيارات طارئة وقامت مجامع لغوية وعلمية ، لا تجمعها رابطة ، ولا تؤلف بينها وشيجة ... وهى وإن كان لها أثر فى خدمة لغتنا ، إلا أن جهودها لم توحد ، ومعارفها لم تلتق ... من أجل عمل تجتمع عليه الأمة ، ويعترف به الكل ، ويحمل عليه الأفراد .

أما بلادنا من حيث واقعها اللغوى ، وباعتبار الثقافة اللغوية ، المكتسبة بالدرس والتحصيل فليست أحسن حالا من غيرها إذا لم تكن فى المؤخرة ، نظراً للقرون العجاف التى مرت بها وهى تغط فى سباتها العميق ، وتتخبط فى متاهاتها المظلمة ، وتأتى يقظتها متأخرة عن جاراتها فى حساب الزمن ... وإلى جانب الأدواء التى فرضتها ظروف هذا العصر على الثقافة اللغوية فهنالك ذيول وعقابيل ، لا تزال تجترها من ماضيها المظلم .

فـهنالك الدخـيل الذى سـرى فى جسم الفصـحى ، بحكم الجهل وبدافع التقليد وبنفوذ الأجنبى المتغلب فى بعض أجزائها ، وانعدام المقاومة ثم بقدوم الوافدين إلى هذه البلاد بدافع التجارة ، والحج من غير العرب ، ممن استوطنوا أو سرت عدوى عجمتهم إلى ألسنة العرب... فأصبحت البلاد تنطق مزيجا من لغات شتى منها التركية ، والفارسية ، والأوردية ، والجـاوية والتكرورية ... وغيرها من لغات الأمم الكثيرة ... وشق على بعض المثقفين أن يفرق بين الأصيل والدخيل مما يتردد على الألسنة ، وتجرى به الأقلام ، ودعك من غير المثقفين فأولئك ما عليهم من سبيل .

ثم ما أتت به هذه المخترعات من أسماء لمسميات فى الطب والهندسة والصناعة والزراعة وسائر العلوم والفنون بقيت على أسمائها كما هى عند أهلها ، وشغلت جانبا من لسان قومنا ولكثرة حاجتنا لها أصبحت أسماؤها أكثر استعمالا على ألسنتنا من كثير من الألفاظ العربية .

وبهذه المناسبة أنقل لكم ما دار بينى وبين نفر من إحدى البلدان العربية المجاورة ، وكنا حول المذياع وهو ينقل مباراة فى كرة القدم ، من الرياض ، وإذا بالمصطلحات التي تنقل كلها بلغة غير عربية ، جون – أوت – كرنر – فاول – بلنتى ... الخ .

قالوا : بلاد الفصحى ، يعز عليها أن تعرب مثل هذه المصطلحات الرياضية اليسيرة ، وتخرج من عار التقليد حتى فى هذه البداءة الصغيرة ، والمفروض أن أرباب النوادى غالبا من الطبقات المستنيرة ، التى تعرف قيمة لغتها ، ومعرة استعمال غيرها .

قلت لهم : دعكم من هذا ، فله حديث يأتى ، ولكن هل قولكم المصطلحات الرياضية صحيح ؟

قالوا : ولم لا يكون صحيحا ؟ ، قلت : إن مدلول هذه المادة لغويا ، لايعطينا هذا المعنى وعليكم أن تستقرئوا وتستنبطوا كما فعلت ، لتجدوا أنها مقحمة على المادة إقحاما وأن المعنى

الأسلم ، والأقوم ، لاستعمال الرياضة المتعارف عليها الآن ، هي الفتوة كما كان العرب يسمونها .

قالوا : إن على الغُيُر من هذه الأمة، أن ينظروا فى إصلاح ما فسد من لغتهم ، وتقويم ما اعوج منها . وتغيير الدخيل الذى جاء عفوا بدون قصد ، أو دعت إليه الضرورة حيث لا يوجد لاسمه بديل ... غيره دخيل يرادف به المتنطعون، والمتعالمون ... يقحمونه فى كلامهم ، ولو لم تدع إليه ضرورة أو يستجلبه داع ، كأن اللغة العربية قد ضاق عطنها ، أو كأن ثقافتنا لا تكمل حتي نطعم لغتنا بلغة أجنبية .

ونحن ندرك أن كل لغة يعتورها الدخيل ، رغم الحفاظ والمقاومة ، بحكم الروابط التى واشجت بين الأمم ، ثقافيا واجتماعيا وطبيا ... الخ لكن ذلك بقدر ، وبقدر ما تدعو الضرورة ، ويستدعى الموقف ، أما أن يطغى ويلتبس باللغة ، ويضادها وينافسها ؛ فهذا ما نخشاه ، وماندعو إلى حربه ... فإنه سرعان ما يخدش الملكة ويفسد الذوق العربى وينتزع الأصالة اللغوية من أذواق أهلها .. ولنا عبرة ببعض الدول العربية التى حاول الاستعمار الفرنسى أن يفرنسها ، فالتاثت عجمة مرتضخة شوهاء ، تحاول الآن التخلص منها .

فسلامة الملكة ، ونفاذ الذوق ، وأصالة الإدراك اللغوى ، والطبع العربى، هى ما ندعوا إليه . وما أعرض الناس عن بلاغة القرآن وفصاحته الآخذة بمجامع القلوب ، المالكة على البليغ الذواقة لبه والمهيمنة على وجدانه .. تجد فيه الملكة السليمة ، والذوق الأصيل ... لذة لا تعادلها لذة وانفعالا نفسيا يتخاذل التعبير دون وصفه وينقطع اليراع دون إبرازه .. ماحدث ذلك إلا بعد أن ارتخت الملكة العربية وخدش الذوق الأصيل ... وما أعرض الناس عن قراءة كتب الجاحظ والمبرد ، وابن المقفع ، والرافعى والزيات ... وعن شعر المتنبى ، وأبى تمام والبحترى وغير هؤلاء وأولئك ممن تتجسم الفصحى فى بيانهم ويبرزونها مجلوة

فائقة رائقة ، تستهوى النفوس وتخلب الألباب ، وتسحر وتبهر .. ما عدل قراؤنا عن ذلك إلى أساليب غثة متهالكة وإلى شعر بارد متكلف ... إلا بعد أن ضعفت الملكة وخولط الذوق .

والصحافة عرفت فى عصر النهضة بأنها المنبر الذى أعطى الفصحى وأجزل، ووسع دائرة القول وأفسح المجال للنقد وتفننت بها الأساليب ، وتواشجت فيها الأقلام ، واحتضنها أعلام الفصاحة وربابنة البلاغة واتخذ منها الرواد الأوائل سلاحا يفرى وبلسما يبرى ... وكان لايتسنم منبرها إلا من اكتملت أداته ، رصلبت قناته ، وأينعت ثمرته ... ولا يسلك فى سمط كتابها ، إلا من سامر المحابر والدفاتر ، وذاق حلو العلم ومره . وإذا قدر له أن يرى شعره أو نثره على صفحاتها الأولى مرة ، طار فرحا واسترفز ، وتَعمَّل ... ولم يقدم لها إلا جنىً شهياً وبياناً جاحظياً .

واليوم غصت الفصحى بفصحافتها وأتيت من مأمنها وتلقفت من أربابها العُجر والبُجر ولقب علي نواصيها بالأستاذية من هو منها أفرغ من فؤاد أم موسى ، وبالأدب من يعرف كل شى إلا الأدب ، وعلى صفحاتها أغضب سيبويه والخليل ، وتنكر لأساليب جرول وجميل ، وحق لها أن تنشد :

لو بغير الماء حلقى شرق
كنت كالغصان بالماء اعتصارى

والنقد وما أدراك ما هو ؟ إنه ضرورة علمية ، يحد من اندفاع الواغلين والمتطفلين ، ويقوم معيارا بين الحق والباطل ، ويهذب ما اعتاص أو تأبد ، ويشذب مانشز ، ويقوم ما انآد ... لم تعد الفصحى تنعم فى كنفه ، ويتفيأ عليها ظلاله ، ويذب عن حماها ، ويدرأ عن حرمتها ... ركب غارب الشعر أناس يقيسون أوزانه بالمساطر ، ويقال لأحدهم : ياله من شاعر ، وتصدى للبيان غير أربابه وقيل لأحدهم : جذيله المحكك وعذيقه المرجب ... وما من نقد يضع الأمر فى نصابه ، ويجلو الحقيقة ويعرف كل ما يعرف ، وما لا يعرف .

أدواء تعتور الفصحى ، وتنخرفى جسمها ، ما تحدثنا عنه بعضها ... وبلادنا هى مهد اللغة ومهبط الوحى ومنطلق المد الإسلامى وصانعة تاريخ العرب والإسلام ... ومن نجادها ووهادها وسهولها وسهوبها نشأت الفصحى ، وبشيحها وقيصومها وخزامها وعرارها تفتقت قرائح الشعراء وتحلبت أفاويق البلاغة والبيان ، وتركت فى مسامع الدنيا أدبا هو المثل الأعلى فى الآداب ولغة هى العباب الزاخر والمثل السائر ... وإذا كان فى العرب الآن من ينطق الفصحى عن أصالة ، ويتذوقها عن طبيعة ويميز غثها من ثمينها ... فما ذلك إلا فى سروات اليمن وهضاب نجد ، ومسارب تهامة .

وإذا كان التاريخ يعيد نفسه ، والفرع يرجع إلى أصله ، والسقب يحن إلى مربعه ومرتعه ... فإن من هذه البلاد تدفقت جداول الفصحى ، وتداركت موجاتها ولاغرابة أن يعود حقها إلى نصابه ، وسيفها إلى قرابه .

وإذا كان حماة الفصحى ، وأمناؤها ، يعلقون على هذه البلاد آمالهم فى انتشال لغة العرب من وهدتها وإيقاظها من رقدتها فما ذلك إلا لأنهم عرفوا للحق أهله ، وأعطوا القوس باريها ... وإذن فالأصالة اللغوية ، والوطن الأم ، والحقائق التاريخية ، والغيرة على لغة القرآن فى مهابطه ، وموئل لغة المسلمين فى مقدساتهم ، ومشاعرهم ... كل ذلك يتمثل فى هذه البلاد ، وكل ذلك عرف بها وعرفت به ... وكل ذلك يجعلها أمانة فى عنق هذه البلاد.

يجب أن تعد نفسها إلى المحافظة عليها ، ويجب أن تقوم دعوة شاملة ، يؤمن بها كل فرد يتبوأ مكانه من جزيرة العرب ، يتزعمها أدباؤنا النابهون ، وتضطلع بها الصحافة المحافظة وتحتضنها الوزارات المختصة ، ويشترك فيها المكتب والنادى والجمعية والمدرسة والبلدية ، يحاربون الدخيل ويستنكرون مضغ الألسن بالعجمة ، ويصححون اللافتات الملحونة ، والعناوين المنحرفة والأسماء المستوردة .. ويأخذ كل نابه يرعى مكتباً أو متجراً أو شركة ... يأخذ

على نفسه أن لا يصدر عنه كتاب ملحون ولا كلام مدخول .

وعسى أن تقوم للنقد سوق رائجة ، ومهيع سليم فيه نستطيع أن نعمل الكثير فى سبيل لغتنا ، وعسى أن يقوم مجمع لغوى فى بلادنا يضم النخبة المختارة من علمائها وأدبائها ، ليرعى مستقبل اللغة ، ويوجه ويرشد ، ويصحح ويعرب ويرجع إليه فيما يعن ، وفيما يختلف فيه ... وعسى أن يتخصص من أدبائنا وناشئتنا... متخصصون فى اللغة العربية متنا وفقها وأدبا وبلاغة ونحوا فهم أحق بها، وأهلها هم أولى الناس بها ويجب أن يكونوا بها أبر ، وعليها أحدب ، ويجب أن يكونوا المرجع فيها والمفزع لمن يسأل عن حقائقها ودقائقها ، وأخبارها وأسرارها .

فجوانب الفصحى بالنسبة إلى هذه البلاد لا تزال بكرا كاعبا ومسالكها لا تزال مجهولة ومآتيها لا تزال غفلا ... ففيها لهجات شتى ، تحتاج إلى دراسة وتحقيق ومقارنة واستنباط وفيها عامية يمت أكثرها إلى الفصحى بأكثر من نسب وسبب ، يدلنا على الأصالة الباقية فى لغتنا والسليقة المستوطنة بها فبالتمحيص والبحث ، نجد أننا على مقربة من لغتنا وأن عودتنا إليها ميسورة ... وفيها أدب شعبى يتمثل فى الشعر والقصة والمثل ... فيه أمجاد مطمورة ، وتواريخ مجهولة ، وحلقات مفقودة ، وآصرة وثيقة ، تربط هذا بأدبنا الفصيح ، وتبين لنا أن هذا فرع ، وذاك أصل وهذا جدول وذاك منبع ، يكشف لنا البحث بينها عن حلقات متصلة وروابط متواشجة .

وفيها أعلام أمكنة وحقائق تاريخية ، ومواد لغوية وأنساب ومعالم ... أخطأ أصحاب المعاجم في ذكرها ، وخلطوا وحرفوا وجاءوا بالبُجر والعُجر :: كل ذلك يقتضينا أن نضع يد الأمة العربية عليه ، ونبصرها به .

وفي الشعر العربى الذى هو أصل كل مادة يعتمد عليها أصحاب المعاجم فى تدوين اللغة ... فيه أسرار وخبايا ومواطن للبلاغة ... أخطأ الشراح فى فهمها وضلوا فى متاهات التمحك

والتمحل والتأويل ... يسهل فهمها على ابن الجزيرة ، وتدنو حقائقها منه بحكم امتداد تلك المعانى إلى اليوم ، واستيطانها فى وطنها الأصلى .. أذكر بالمناسبة أن شارحا كبيرا جاء يشرح قول البهاء زهير :

بل كعبة المعروف بل كعب الندى
والماء يقسم شربه بحصاته

لت وعجن . ثم قال إن القوم يرضون بقسمته ، إذا ألقى فى الماء الكثير حجرا ، رضوا بأن ما كان من يمين مرمى الحجر فى الماء فهو لآل فلان، وما كان عن يساره فهو لآل فلان ، ونقول للشارح الكريم : وإذا اختفى مرمى الحجر فى الماء فمن يحكم بين الفريقين ؟

وما علم أننا لو عرضنا هذا البيت على أعرابى فى شملته ، لتبادر إلى ذهنه من أول وهلة المعنى الذى يعرفه والذى يقصده الشاعر ، وهو أن الماء إذا شح على القوم وأرادوا أن يقتسموه للشرب – وضعوا حجرا فى الإناء وأخذوا يهريقون عليه من القربة حتى يغطيه الماء ثم يقدمون لسائر القوم شربة شربة على أساس هذا القياس .

وبالجملة فإننا لنأمل ونتمنى أن تدرك هذه البلاد مسئوليتها تجاه لغتها ، وأن تنهج النهج الأقوم فى الحفاظ عليها وحياطتها ، وما ذلك عليها بعزيز .

عبد الله بن محمد بن خميس
عضو المجمع المراسل من السعودية